حملة القائد معاوية بن حُديْج على إفريقية
عام 34هـ./ 654م. – 655م.

الأستاذ الدّكتور/ محمد بن عميرة

قسم التاريخ– جامعة الجزائر 2

الملخص:

كان معاوية بن حُديج من المشاركين في فتح مصر سنة 20هـ/ 640هـ–641هـ، إلى جانب عمرو بن العاص، كما شارك إلى جانب عبد الله بن سعد بن أبي سرح في الحملة على إفريقية سنة 27هـ/ 647– 648م، وقاد بنفسه، حملة على نفس المنطقة سنة 45هـ/ 665– 666م، وهناك خلاف بين المؤرّخين القدماء والمحدثين في شأن قيامه بحملة أخرى سنة 34هـ/ 654– 655م: فمنهم من أكّد هذا الخبر، ومنهم من نفاه، ومنهم من لم يشر إليه تماما، ويبقى الحسم في أمر وقوعها مسألة معقّدة: إذ من الصعب نفي قيامها، ما دامت مصادر كثيرة أكّدت العكس، ووضّحت أنّها حدثت، قبل مقتل الخليفة عثمان، وقيام الفتنة الكبرى بين المسلمين. علما أنّ مقتل الخليفة كان سنة 34هـ. وقد يكون أقرب رأي إلى الصواب هو ما استنتجه M. Caudel من احتمال قيام بن حديج بحملة صغيرة على إفريقية انطلاقا من مصر، في ذلك التاريخ، ومرّ فيها بالموقع الذي أقيم فيه، فيما بعد، معسكر القيروان، بدليل احتوائه على قبر أحد الصحابة، وهو أبو زُمعة عبيد الله بن آدم البلوي، لكنّه عاد إلى نقطة انطلاقه سنة 35هـ، ليشارك في أحداث الفتنة التي نجمت عن مقتل عثمان.

يسلّط هذا البحث الضّوء على ما عرف عن هذه الشّخصية القيادية العربية المسلمة قبل سنة 34هـ، ثمّ محاولة الإجابة عن سؤال ما إذا قام فعلا بحملة عسكرية على بلاد المغرب في التاريخ المذكور أم لا؟ وذلك بناءا على المعلومات الواردة في بعض المصادر التّاريخية والدّراسات الفرنسية والعربية التي اعتمدت عليها.

- من هو ابن حُديج؟

إسمه: مُعاوية بن حُديْج أو خُديْج التُّجِيبي أَو السَّكوني أو الكِنْدي، وهو من الذين شاركوا في فتح مصر، إلى جانب عمرو بن العاص، سنة 20هـ./ 640- 641م.، وكانَ رَسولَه "إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية، وقد اختُلف فيه، فقال قوم: له صحبة (مع الرّسول صلى الله عليه وسلّم)، وقال آخرون: ليست له صحبة"[1].

كما شارك ابن حُديْج، إلى جانب عبد الله بن سعد بن أبي سرح، في حملة العبادلة التي استولى فيها على سُبَيْطلة سنة 27هـ./ 647- 648م[2]. ورافقه أيضا في حملته على بلاد النُّوبة، وأصيب في عاصمتها دَمْقَلة، سنة 31هـ/ 651- 652م.، في عينه[3].

1- ابن تغري بردي (أبو المحاسن): **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة 1383هـ./ 1962م.، جـ. 1، ص. 22.

2- En-Noweiri: Conquête de l'Afrique septentrionale par les mus. Et hist. De ce pays, sous les émirs arabes, dans Ibn khaldun, hist. Des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afr. Septentrionale, traduite de l'Arabe par le Baron de slane, Paris 1968, T. 1, PP. 314-315.

3- الكندي (أبو محمد بن يوسف): كتاب الوُلاة وكتاب القضاة، مهذّبا ومصحّحا بقلم رفن كست، بيروت 1908، ص. 12.

هل قام ابن حُديْج بحملة عسكرية سنة 34هـ. على بلاد المغرب؟

أفاد ابن عبد الحكم أنّه خرج إلى إفريقية، أي قام بحملة عليها "بعد عبد الله بن سعد... سنة أربع وثلاثين، وكان معه في جيشه عامئذ، عبد الملك بن مروان ... واتّخذ قيروانا، عند القرن، فلم يزل فيه حتى خرج إلى مصر"[1]، أي عاد إليها، وكان موضع قيروانه، أي معسكره، حسب نفس المصدر، هو "قونية"، وقد انتقل منها إلى جبل يقال له "القرن" فعسكر إلى جانبه "وبعث عبد الملك بن مروان إلى مدينة جلولاء ... فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها، وانصرف عبد الملك إلى معاوية بن حُديْج، فاختلف النّاس في الغنيمة، فكتب في ذلك إلى معاوية ابن أبي سفيان، فكتب: إنّ العسكر "ردءٌ للسّرية" أو "ردّة للسّرية"[2] فقُسّم ذلك بينهم، فأصاب كلّ رجل منهم لنفسه مائتي دينار، وضُرب للفرس بسهمين ولصاحبه بسهم[3] أو أنّ "ابن حُديْج غزاها بنفسه وفتحها" وفيها السّبْيُ، لم يردّهم أحد، فغنموا وانصرف منها راجعا إلى مصر[4].

ويسجّل ابن عبد الحكم، لابن حُديْج، ثلاث غزوات أَوْلاها هذه، ملاحظا أنّ كثيرا من النّاس لا يعرفونها، وأنّها وقعت قبل مقتل الخليفة عثمان الذي أعطى مروان بن الحَكَم الخُمُس[5]، ويسترسل هذا المؤرّخ في كلامه، قائلا: إنّ الحملة الثّانية وقعت "سنة أربعين (40هـ./ 660- 661م.)، والثّالثة سنة خمسين (50هـ./ 670- 671م.)"، دون إضافة معلومات أخرى عنهما،

1- فتوح إفريقية والأندلس، نشره وترجمه إلى الفرنسية .Gateau A، الجزائر، 1948، ص. 56.

2- ابن عبد الحكم، **المصدر السابق**، ص. 58.

3- البكري: **المغرب في ذكر إفريقية والمغرب**، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشره البارون دوسلان، الجزائر 1957، ص. 32.

4- ابن عبد الحكم: **فتوح**، ص. 58؛ البكري: **المُغرب**، ص. 32.

5- نفس المصدر، ص. 60.

وهو ما يلتقي فيه مع المالكي، فيما نقله عن أبي العرب في هذا الموضوع، مع الفرق أنّ هذا الأخير لم يتعرّض إلى ما قد يكون وقع من أحداث في غزوة 34هـ. هذه[1]، كما يلتقي المؤرّخان السّابقان، في مَبدإ قيام ابن حُديْج بثلاث غزوات، مع ابن عذاري، ولكن اتّفاقهما معه لا يتجاوز تحديد تاريخ الحملة الأولى بسنة 34هـ./ 654- 655م.

إذ يُلاحظ هذا الأخير، زيادة عنهما، أنّ النّاس انشغلوا، بعد ذلك، بأمر عثمان وما نجم عنه من أحداث[2]، كما يحدّد تاريخ غزوته الثّانية بسنة 41هـ./ 661- 662م. (وليس بسنة 40هـ./ 660- 661م.، مثلهما)، دون أن يحدّد مكان انطلاقها؛ وينقل عن مختصر عريب أنّ "معاوية بن خُديْج نزل جبلا فيها (إفريقية)، فأصابه مَطَر شديد، فقال: "إنّ جبلنا هذا مطمورٌ فَسُمّيَ البلد مطمورا .. وقال "اذهبوا بنا إلى ذلك القرن "فسُمّي ذلك الموضع قرنا"[3]، ولم يذكر ابن عذاري أيّ نشاط آخر لابن حُديْج، في هذه الغزوة ولا إلى أين اتّجه بعدها.

أمّا غزوة ابن حُديج الثّالثة بالنّسبة إليه، فهي تلك التي وقعت سنة 45هـ./ 665- 666م.، وهي الأخيرة، وقد اقتبس تفاصيل وقائعها عن كلّ من

1- المالكي: **رياض النّفوس في طبقات علماء القيروان وزهّادهم وعبّادهم ونسّاكهم و...**، نشره حسين مؤنس، القاهرة 1368هـ./ 1951م.، ص. 18- 19؛ أنظر: الدّباغ وابن ناجي: **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تصحيح وتعليق إبراهيم شبّوح، ط. الثانية، القاهرة 1388هـ./ 1968م.، جـ. 1، ص. 44.

2- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط. بيروت، جـ. 1، ص. 14-15.

3- نفس المصدر، 1، ص. 15.

الرقيق والطبري الذي اقتبس بدوره معلوماته عن عُريب، وهي الحملة التي هزم فيها جيشا بيزنطيا، قرب مدينة سورية، واستولى فيها على مدينة جلولاء[1].

واللاّفت هنا أنّ أصحاب المصادر المذكورة اتّفقوا على شيئين اثنين، فيما ذكروه، أوّلهما تحديد تاريخ حملة ابن حُديْج الأولى بسنة 34هـ.، وثانيهما أنّ هذا الأخير قام بحملات ثلاث على بلاد المغرب؛ غير أنّهم اختلفوا في تحديد تواريخ الحملتين الأخيرتين وفي الحديث عن تفاصيل توزيع نشاطه العسكري على تلك الحملات، أو بالأحرى، في الحملة التي كان له فيها نشاط واسع، واستولى فيها، خصوصا، على مدينة جلولاء.

ومن المؤرّخين الفرنسيين القلائل الذين توقّفوا عند حملة 34هـ. هذه، Caudel M.، معتمدا في ذلك، أساسا، على رواية بن عبد الحكم، وملاحظا أنّ الشّك الفوري للسّيد فورنيل (Fournel) في وقوعها، يعود إلى كونه لم يطلع على كتاب المالكي ولا على كتاب ابن ناجي[2] (أي الدباغ وابن ناجي)، وبعد عرض Caudel تفاصيل ما أورده هذان المؤرّخان، إضافة إلى ما ذكره ابن أبي دينار، خلُص إلى القول: إنّ ابن حُديج "شارك في حملة مصر، والحملة الأولى على إفريقية، فلا عجب أن يكون قد تخيّل مشروع تحديد عمليّة (Entreprise) سبق له وأن استطاع تقدير فائدتها، إذْ كان بمصر سنة 34هـ.، ولم يكن هناك ما يمنعه من الزّحف على مقاطعة إفريقية، دون أن يقيم فيها طويلا، لأنّنا سنجده في الفسفاط سنة 35هـ.، يدافع عن حكم عثمان، ضدّ محاولة محمد بن حذيفة ... وهذه المجموعة من الوقائع تحمِلنا على الاعتقاد بوقوع حملة له، فعلا، سنة 34هـ. أوقريبا منها، ولو أنّ الاتّفاق، حولها، تام

1- نفس المصدر، ص. 16 فما بعدها.

2- Les premières invasions arabes dans l'Afrique du Nord ; 21- 78h/ 641- 697, P. 84.

بين الإخباريّين، في واقع الأمر، وهي قليلة الأهمّية، وقد تكون أوقفت في بدايتها، بسبب الإعلان عن الأحداث التي أربكت المشرق آنذاك (التّمرد بمصر، ومقتل عثمان)، وأدّت قِلّة أهمّيتها إلى نسيانها بالنّسبة للبعض، وإلى الخلط بينها وبين غيرها، من الحملات اللاّحقة، بالنّسبة للبعض الآخر[1].

وتساءل Caudel عمّا إذا كان معاوية (بن حُديج) أسّس، فعلا، مدينة القرن سنة 34هـ؟ ثمّ أجاب "أنّ الواقعة، في حدّ ذاتها، قابلة للنّقاش، ويمكن هنا، رؤية لُبس جديد بين الحملة الأولى وبين الحملات التي تبعتها، وسنرى فيما بعد أنّ موقع القرن سيلعب دورا كبيرا في حملة أخرى قادها ابن حُديج، فما قام به هذا الأخير سنة 34هـ، كان مجرّد مرور، وكان سيبقى مجهولا للأبد، لولا أنّه ترك، على أرض إفريقية، أحد الرّجال الأكثر وقارا، في بلاد البربر التي تفتخر باحتواء قبره، فابن النّاجي يقول: "إنّ أبا زُمعة عبيد الله بن آدم البلوي، مات بالقيروان، وبالضّبط في موقع المدينة التي سيؤسّسها عقبة (بن نافع) فيما بعد، إنّه الصّحابي الوحيد الذي دُفِنَ في إفريقية. بقيت نقطة تحتاج إلى توضيح: كيف نرى المؤلّفين يشيرون، باستمرار، في حملة 34هـ. تلك، إلى مدينة لم تُؤسَّس إلاّ ستة عشر سنة، بعد ذلك؟ إنّ المؤلّفين لا يخلطون (بين الأمور)، لأنّهم عندما يتحدّثون عن مقبرة البَلَوي، أو باب السّلم، على سبيل المثال، يعتنون إضافة "الآن" ويُوعِزون بوضوح، أنّ المدينة لم تكن موجودة، أثناء وقوع الأحداث التي يتحدّثون عنها، وأنا، من جهة أخرى، أميل إلى الاعتقاد أنّ عقبة لم يأت، من باب الصّدفة، إلى نفس النّقطة، ولكن الضّرورات التّكتيكيّة نفسها التي سبق وأن قادت ابن حُديج إليها، هي التي أتت به[2].

1- Ibid, P. 86.

2- Ibid, P. 88.

كما توقّف ش. بلاَت (Pellat Ch.) عند هذه الحملة، مقتبسا ما ذكره عنها من ابن عبد الحكم، فذكر أنّ صاحبها استولى "على عدّة قلاع، وجمع غنيمة معتبرة، وأقام قيروانا (Camps garnison)، قرب القرن، فبقي فيه حتى عاد إلى مصر ...، وبهذه المناسبة نَفَل جيشه نصف الغنيمة، بعد اقتطاع الخُمُس"[1] ثمّ أضاف قائلا: إنّ "المؤرّخين الأوائل، أمثال ابن عبد الحكم والبكري، فيما بعد، يَرْوون تفاصيل عجيبة عن الاستيلاء الخارق (miraculeux) على جلولاء، من طرف عبد الملك بن مروان، أو من قبل قائد الحملة (ابن حُديج) نفسه"[2].

مع ملاحظة أنّ المؤرّخيْن السّابقيْن لم يطّلعا، حسبما يبدو، على رواية ابن عذاري المراكشي في الموضوع؛ أمّا غالبيّة الكتّاب الفرنسيون فيقفزون صراحة على تلك الحملة ولا يشيرون إليها تماما، ومن هؤلاء هـــ. فورنيل (Fournel H.) الذي سبق وأن انتقد Caudel شكّه فيها.

إذْ أبدا فورنيل قناعته بأنّ "العرب لم يفكّروا في المناطق الغربية (الواقعة غرب مصر)، منذ سنة 27هـــ. (647– 648م.)، لكن السّنوات التي مرّت بعد 25 هـــ. لم تُسكّن، لدى عمرو بن العاص الحماسة التي كانت تجرّه نحو إفريقية ... فعندما محا أثر الفوضى التي كانت مصر مسرحا لها، آنذاك، وتبيّن له أنّ الخلافة أصبحت شبه شرعية، في يد معاوية، بعد موت عليّ وتنازُل ابنه الحسن عنها، في بداية عام 41 هـــ.، وبعدما أصبحت ولاية مصر مُوطّدة، بين يديه، التفت فورا نحو إفريقية، واستأنف الغارات (excursions) التي مهّد العرب بها الحملة 27 هـــ. ولا يُعرف أيّ شيء مضبوط عن تلك الغارات، لكن يبدو أنّها

1- Encyclopédie de l'islam, nelle éd. Leiden-New york- Paris 1993, T. VII, art. Mu'awiya b. hudaydj, P. 271.

2- Id.

دُفعت إلى أبعد حدّ ممكن، في حالة ما إذا أُخذ بعين الاعتبار وُجُودُ اثر لها في مقطع (passage) للبكري، هذا نصّهُ "وافتتحها (إفريقية) معاوية بن حُديج سنة إحدى وأربعين، وكان معه عبد الملك بن مروان"[1].

ورأى Mercier E.، من جهته، أنّه "كان بإمكان البيزنطيين، الذين علّمتهم التّجربة، أن يجدوا وقتا لتنظيم المقاومة، بطريقة ناجعة، خلال سنوات الهُدنة (التي انشغل فيها العرب، بفتنتهم، عن إفريقية) ومدّتها عشرون عاما، لكن الحكام الإغريق، عِوَضَ استدعاء الأهالي وتبصيرهم بأنّ مصلحتهم تكمن في صدّ المحتلّين (envahisseurs)، وتدريبهم (les dresser) على النّظام، راح أولئك الحكام يُكملون إبْعادهم عنهم، بطغيانهم (tyrannie) وابتزازهم (exactions)"[2].

وفي اعتقاد Marçais G. أنّ العرب، بعد انتصارهم في سُبَيْطلة وانسحابهم إلى المشرق "ابتعدوا عن البلد، الذي كان احتلاله يبدو ناضجا، وسيُظهرون، مدّة خمس سنوات أو أكثر، عدم مبالاتهم أو، على أيّة حال، يحتمل أن تكون عصابات مسلّحة (bandes armées) استمرّت في الانطلاق، من منطقة طرابلس (Tripolitaine) إلى إفريقية، لابتزازها، وقد تكون استطاعت تحويل الذين كانت تهدّدهم إلى الإسلام أيضا، ربّما حرّكت حملة 665م.، (45هـــ.)، وحدها، قوّات هامّة، وتحصّلت على نتائج باهرة (notable). وفيما بين الحملتين: الأولى (حملة 27هـــ.) والثّانية (حملة 45 هـــ.)، غيّر الإسلام حكّامه (maîtres)، خلال صراعات دموية، كادت تقضي على وحدته ... وقد امتصّت تلك الأزمات نشاط أسياد العالم

1- Les berbères, 1875, T. 1, PP. 138-139.

2- Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale, Constantine- Alger, 1875, P.P. 56.

الإسلامي، وبكلّ وضوح، نفترض أنّ غيابهم عن الغرب يُفسَّر هكذا، رغم أنّ الإخباريين لم يكلّفوا أنفسهم عناء البحث عن أسباب ذلك ..."[1].

ويذهب Terrasse H. إلى القول: "إنّ إفريقيا الشّمالية (بلاد المغرب)، عرفت بعد انسحاب المسلمين سنة 27هـ.، سبع عشرة سنة من الهدنة، وهي كلّ المدّة التي استغرقتها أزمة الخلافة، التي بدأت باغتيال الخليفة عثمان، وقيام صراع بين عليّ ومعاوية، وانتصار هذا الأخير فيه، وتأسيس خلافة دمشق سنة 660م. وقد أصبح الإسلام الذي امتصّته نزاعاته الدّاخلية، عاجزا عن القيام بتوسّعات (conquêtes) جديدة، و لم تَستَغِل إفريقية هذا الوقت (لتقوية دفاعها)، لأنّ الصّراعات الدّينية أثارت (dressaient) مسيحيي إفريقية، الذين كانوا أوفياء جدّا لرومة، ضدّ الإمبراطورية (Basileus) البيزنطية التي اقتصرت سيطرتها على شمال ووسط البلاد التّونسية (الآن)، فلم تجد الخلافة الأموية أمامها، عندما صار في وسعها استئناف الغزوات، سوى إكسارخية محتضرة على ما يبدو"[2].

ويتّفق معه Julien (Ch. A.) في طرحه هذا، ملاحظا أنّ "الاضطرابات التي أعقبت اغتيال عثمان كلّفت إفريقية سبعة عشر عاما من الهدنة (répit) ... وأنّ مصر التي كانت تُستَخدم كقاعدة للحملات الموجّهة إليها، أُقحمت مباشرة في تلك الاضطرابات: إذ ثارت على ولاة عثمان، وأجْبرت ابن سعد على مغادرتها، وأرسلت إلى المدينة المنوّرة قتلة الخليفة، ثمّ انتقلت، بعد ذلك، إلى سلطة عليّ حتى سنة 658م.، حيث استولى عليها أحد

1- La Berberie musulmane et l'orient au Moyen Age, Paris, 1946, P. 30.

2- Histoire du Maroc, dès origines à l'établissement du prosectorat français, éd. Atlantides, Casablanca 1947, livre V, P. 79.

مساعدي (lieutenant) معاوية (بن سفيان)؛ فالصراعات الدّينية والسياسة "نقلت، بطبيعة الحال، مشروع الهجوم على المغرب إلى الدّرجة الثّانية من الأهميّة، وقد استأنفت الأُسرة الحاكمة الجديدة مشاريع التّوسع نحو الغرب، بإسنادها ولاية مصر إلى عمرو (بن العاص) العجوز الذي لم يتخلّ عن نواياه في إفريقية ..."[1].

أمّا الجنرال Bémond G. فيجعل حدوث الغارة (razzia) الثانية، بعد واحد وعشرين سنة من الأولى[2]، أي غارة سنة 27 هـ. التي قام بها ابن سرح.

فباستثناء Caudel إذًا، فإنّ هؤلاء المؤرّخين الفرنسيين متّفقون على نَفْي وقوع حملة سنة 34هـ.، وبالنّسبة لفورنيل، فإنّ الغارات العربية لم تستأنف على إفريقية، بعد سنة 27هـ.، إلاّ منذ سنة 41هـ.، أي بعد أربع عشرة (14) سنة؛ في حين يقدّر ميرسيي مدّة الهدنة التي عرفتها إفريقية، مع العرب، بعشرين (20) سنة؛ ويقدّرها كلّ من تيراس وجوليان بسبع عشرة (17) سنة؛ ويقدّرها بريمون، أخيرا، بواحد وعشرين (21) سنة.

وعند التّمعّن في اختلاف الأرقام المعلنة، هنا، يتبيّن انّ أصحابها اعتمدوا على معطيات مختلفة، أي أنّ ما اعتمد عليه بعضهم، من مصادر؛ لم يعتمد عليه البعض الآخر، بل تشتمّ، فيما ذكروه، رائحة اعتماد بعضهم على البعض الآخر، دون الإشارة إلى ذلك، إلاّ في حالات قليلة. ولا يوجد ما يدّل على أنّ هناك منهم مَنْ قام بعملية مسح كاملة لمادّة أغلب المصادر التي غطّت الموضوع.

1- Histoire de l'Afrique du Nord, Payot-Paris, 1966, T. 2, P. 15.

2- Berbères et Arabes, la Berberie est un pays Européen, Payot- Paris, P. 181.

ومن المؤرّخين العرب الذين توقّفوا عندما ذُكر عن حملة 34هـ. هذه، حسين مؤنس الذي انطلق من رواية ابن عبد الحكم التي تُسند ثلاث حملات لابن حُديج إلى إفريقية، في سنوات: 34هـ. و 40 و50هـ.، ملاحظا أنّ أغلب المصادر المغربية نقلت عنه هذا الخبر، وأنّه جمع كلّ أعمال ابن حُديج بإفريقية في غزوة 34هـ.، ويجاريه في ذلك ابن خلدون الذي يضيف أنّ غزوة 34هـ. هذه، كانت في خلافة معاوية بن أبي سفيان. ويبدو من سياق روايته، أنّ أعمال ابن حُديج كانت متّصلة: يلي بعضها بعضًا، دون أن تفرّق بينهما فترات طويلة كالتي بين سنوات 34 و 40 و50هـ.، وهذا ما جعل مؤنس يميل إلى الاعتقاد بانّ الرّجل قام بغزوة واحدة، أتمّ فيها كلّ ما نُسب إليه من أعمال، في حين أنّ الغزوتين الأخريين، قد يكون شرع فيهما و لم يفعل، أو أنّه لم يقم بهما أصلا، بدليل أنّ غالبيّة المؤرّخين الآخرين، لا يذكرون إلاّ غزوة واحدة، يجعلون فيها كلّ فتوح ابن حُديج، ويختلفون في تحديد السّنة التي تمّت فيها: فيجعلها بعضهم سنة 45هـ.، وبعضهم الآخر سنة 41هـ.، وقلّ منهم من أشار إلى سنة 34هـ. أو 50هـ.[1].

والثّابت، حسب مؤنس، أنّ ابن حُديج كان من كبار قوّاد ابن أبي سرح في مصر سنة 34هـ.، في حين كانت فتنة عثمان على أشدّها، وكانت مصر، على الخصوص، مركزًا من مراكز السّخط على عثمان، وكان عثمان وأنصاره في هذه السّنة في شغل عن الغزو الخارجي، لما أصاب الخلافة من اضطراب، فاقتصرت جهودهم على الدّفاع عن عثمان، ممّا لا يتّفق مع قيام ابن حُديج بغَزوة عظيمة كهذه، وهو من أنصار عثمان، لأنّ الأوضاع في مركز الدّولة لا يسمح له بإنفاق قوّاته في بلاد بعيدة. فإذا كان تعليل عودة ابن أبي

1- **فتح العرب للمغرب**، ص. 115- 116.

سرح السّريعة بإحساسه بالخطر على عثمان؛ فهل يطمئنّ إلى إرسال جنده إلى إفريقية، في هذا الظّرف الحرج؟ ثمّ إنّ ابن حُديج كان موجودا بمصر، في العام التالي، أي عام 35هـــ.، مطالبا بدم عثمان، فهل كان في وسعه أن يذهب إلى إفريقية، ويفتح جلولاء وسوسة ومثروت ويحاصر هذه المدائن، زمنا طويلا، ويقيم بناحية القرن مساكن يسمّيها قيروانا، في أقلّ من سنة، ثمّ يعود لمصر؟ المعقول أن تكون هذه الغزوة قد تمّت في وقت آخر، استقرّت فيه الأحوال، وأمن فيه أنصار عثمان على أنفسهم، وقد أصاب فورنيل (Fournel)، حين استبعد وقوع ابن خلدون في خطأ، عندما ذكر أنّ معاوية كان خليفة سنة 34هـــ.، وأنّ ابن حُديج كان واليا على مصر، إذ ذاك، وإنّما الأمر يتعلّق بخطأ في النّسخ، وَرَدَ فيه سنة 34هـــ. عوض سنة 43هـــ.[1].

ويضيف مؤنس، دائما، أنّ رواية ابن عبد الحكم التي تطرّقت لهذا الموضوع، يشوبها شيء كثير من الاضطراب: فهي تجعل أعمال ابن حُديج، التي أوردها جميع المؤرّخين، سنة 34هـــ.، وتقول في آن واحد: إنّ هذه الغزوة لا يعرفها كثير، والأقرب إلى الصّواب أنّ ابن عبد الحكم أراد أن يقول: "إنّ ابن حُديج قد يكون غزا غزوة صغيرة سنة 34هـــ.، لم يقم فيها بشيء ذي بال، ولذلك لم يعرفها الكثير من المؤرّخين[2].

وهنا أبدى مؤنس معارضته لكودل (Caudel) في محاولته تأييد ابن عبد الحكم، فيما ذهب إليه، بحجّة أنّه لم يأت ببيّنة من النّصوص التي تعلّل هذا التّأييد، وأنّه قال، معلّقا على هذه الغزوة، "ولكنّها كانت على جانب قليل من الأهمّية، وربّما تكون قد توقّفت في بدايتها، حينما ترامت أخبار الأحداث التي كانت تغشى المشرق ذلك الحين، وكانت قلّة أهمّيتها تلك داعية البعض إلى

1- **فتح العرب للمغرب**، ص. 116- 117.

2- نفس المرجع، ص. 117- 118.

إهمالها، والبعض الآخر إلى خلطها بما تلاها من غزوات"، ثمّ عقّب على هذا الرّأي بقوله: "إنّ جمع الحوادث كلّها في سنة واحدة يفسد التّاريخ"[1].

والصّواب في رأي مؤنس، دائما، أنّ ابن حُديج عاد فغزا غزوة كبيرة أخرى في سنة لم يذكرها ابن عبد الحكم سهوا؟ وهذا أقرب الآراء إلى الصّواب، وأكثرها اتّفاقا مع منطق الحوادث؛ أمّا سنة 50هـ. فقلّ من المؤرّخين من يذكرها، وربّما ذكر بعضهم فيها حوادث قليلة أو تردّد بينها وبين سنة أخرى، وهو ما جعل مؤنس يميل إلى نفيها، خاصة وأنّه يعلم، كما يقول، أنّ عامل مصر في سنة 50هـ.، كان مسلمة بن مخلد الأنصاري، وأنّه عزل عقبة عن إفريقية، وولّى عليها، بدله، مولاه أبا المهاجر، و لم يَقُلْ أحد من المؤرّخين أنّه بعث ابن حُديج ثمّ عزله بعقبة ثمّ عزل هذا الأخير بأبي المهاجر[2].

وقد أشار موسى لقبال إلى ما اتّفق عليه كلّ من ابن عبد الحكم والدّباغ من قيام معاوية بن حُديج بثلاث حملات على إفريقية: إحداها سنة 34هـ. والثانية سنة 40هـ. والثالثة سنة 50هـ.، لكن لقبال عبّر عن اعتقاده "أنّ تحديد حملة معاوية بسنة 34هـ.، أو بعدها بقليل، غير مقبول، لأنّ الأوضاع الدّاخلية، في مركز الدّولة العربية، وفي ولاية مصر، قاعدة الفتح، كانت غير مناسبة، ولأنّ الأمور لم تستقرّ بعدُ، في يد معاوية بن أبي سفيان، فكيف يوافق على تسيير جيشه، وقادته الأوفياء لقضيّته، في سنتيّ 34هـ. أو 40هـ. بعيدا عنه إلى ميدان إفريقية"[3].

1- نفس المرجع، ص. 118، هامش 1.

2- نفس المرجع، ص. 118.

3- المغرب الإسلامي من بناء معسكر القرن حتى نهاية ثورات الخوارج، سياسة ونظم، ط. 2، الجزائر، 1981، ص. 25.

واعتقاد لقبال هذا لم يأخذ بعين الاعتبار، على ما يبدو، ما لاحظه ابن عبد الحكم من وقوعها قبل مقتل الخليفة عثمان الذي أعطى مروان بن الحكم الخمس[1] وهو ما أكّده ابن عذاري المراكشي بقوله: "إنّ النّاس انشغلوا، بعدئذ، أي بعد قيام حملة 34هـ.، بأمر عثمان وما نجم عن ذلك من أحداث[2]، أي ما يعني، بكلّ وضوح، أنّ وقوع تلك الحملة كان قبل بداية الأحداث التي أدّت إلى مقتل الخليفة عثمان.

وقد لاحظ سعد زغلول عبد الحميد أنّ ابن عبد الحكم، الذي حدّد تاريخ تلك الغزوة بسنة 34هـ.، "شكّ ... في صحة هذا التّاريخ، فقال: ... إنّها غزوة لا يعرفها كثير من النّاس"[3]. غير أنّ هذا القول، كما هو واضح، لا يعني أبدا أنّ صاحبه شكّ فيما حدّده من تاريخ، بل قد يعني، ببساطة أنّ اغلب ما اطّلع عليه، من المصادر المعتمدة في تأليف كتابه، أغفلت ذكره، لا غير.

وتوقّف زغلول عند اختلاف ابن عبد الحكم وابن عذاري، في تحديد تاريخَي حملتي ابن حُديج: الثّانية والثّالثة، لطرح مشكلة تعدّد تواريخ، الحدث الواحد، فخلص إلى القول: "إنّ تعدّد التّواريخ هنا يعني أحداثا متوالية، حسبما تقتضيه طبيعة الحرب التي تعلّق بسيرها مصير أقاليم شاسعة وأمم متعدّدة. وواصل زغلول كلامه بقوله "وحرب المغرب في تلك المرحلة كانت أشبه ما تكون بالغزوات السّنوية المعروفة بالصّوائف، وهي حرب الثّغور، ممّا يُخشى معه أن تكون أحداث تلك الحملات المختلفة قد اختلطت، وتداخل بعضها في

1- **فتح العرب للمغرب**، جـ. 1، ص. 60.

2- أنظر: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط. بيروت، جـ. 1، ص. 14- 15.

3- **تاريخ المغرب العربي، من الفتح إلى بداية عصر الإستقلال**، ط. الإسكندرية، 1995، جـ. 1، ص. 166.

بعض. أو أن تكون قد جُمعت كلّها في غزوة واحدة. وبناء على ذلك، وللتّوفيق بين هذه التّواريخ المتعدّدة، نأخذ بما قاله ابن عبد الحكم من أنّ حملة ابن حُديج الأولى، في سنة 34هـــ.، كانت حملة صغيرة، أي صائفة من تلك الصّوائف، ولهذا السّبب لم يعرفها كثير من النّاس، وربّما كان مقتل معبد بن العباس في إفريقية سنة 35هـــ. أثناءها"[1].

واللاّفت فيما عرضه زغلول، من أفكار هنا، أنّهُ شبيه، إلى حدّ بعيد، بما ذكره قبله م. كوديل بأكثر من قرن من الزّمن، وكأنّه اقتباس غير معلن، مع بعض التّحوير[2].

ولم تستطع حياة عَمامو الحسم، في أمر الأخبار المتعلّقة بمعاوية بن حُديج، في إفريقية أواخر خلافة عثمان، ورأت أنّه لا مناص من تعميق تحليل هذه الأحداث المذكورة صراحة، للتوصّل إلى استنتاج ما لم يذكر بصفة واضحة ..."[3]، ثمّ راحت تستأنف كلامها قائلة: "يبدو من خلال الأخبار الواردة عن معاوية بن حُديج أنّه كان في طلائع جيش مصر، منذ ولاية عبد الله بن سعد، لذلك فمن غير المستبعد أن يكون قد قام ببعض الغارات ضدّ إفريقية، خلال هذه الفترة ...، ومن هذه الوجهة لا نستبعد غزو قسم من جيش مصر بقيادة معاوية بن حُديج لإفريقية سنة 34هـــ.، في مرّة أولى ... ولكن ما نستبعده هو حدوث الأمر كما رواه ابن عبد الحكم في (حديثه عن حملة) سنة 34هـــ.، من أنّ معاوية "افتتح قصورا وغنم غنائم عظيمة، واتّخذ قيروانا عند

1- **نفس المرجع**، ص. 167؛ مع ملاحظة أنّ ابن عبد الحكم لم يقل أنّها كانت حملة صغيرة أو كبيرة بل إنّ الذي رأى ذلك هو م. كوديل، كما تبيّن سابقا.

2- أنظر ما قبل، ص. 2، 3.

3- **أسلمةُ بلاد المغرب**، 2004، ص. 42.

القرن، فإذا أنجز بن حُديج كلّ هذا، منذ سنة 34هـــ.، فما عساه فعل في غزواته اللاّحقة؟"[1].

وفكرة عمامو الأولى، كما يلاحظ، تلتقي مع فكرة .Caudel M الذي تمّ طبعُ كتابه سنة 1900؛ وكأنّها هي الأخرى، اقتبستها منه، وهي لا تَستبعد فيها قيام ابن حُديج بحملة على إفريقية انطلاقا من مصر سنة 34هـــ.[2]، هذا معقول لكن فكرتها الثّانية القائمة على ما فتحه وما أنجزه وما غنمه لا يبدو أنّها تقوم على حجّة دامغة.

أمّا أغلب المؤرّخين والكُتّاب العرب، فقد قفزوا، كما قفز أغلب المؤرّخين والكتّاب الفرنسيين، على حملة 34هـــ. هذه، ومن أولئك: مبارك الميلي الذي راح يُسجّل أنّ البربر والرّوم قضوا "ثمانية عشر سنة، بعد انجلاء العرب عنهم (أي بعد حملة 27هـــ.) في الفوضى. وشغل العرب عن العودة إلى غزوهم، بما كان من شأن الثّورة على سياسة عثمان (رضي الله عنه) ثمّ قَتْلِه..."[3].

ويشير محمد علي دبّوز إلى "ما قيل" من أنّ ابن حُديج "غزا المغرب عدّة غزوات، بعد غزوة عبد الله (ابن أبي سرح)"[4] متوقّعا أن تكون "هذه الغزوات هي السّرايا التي كانت تتوالى من مصر، فتصيب من أطراف إفريقية فترجع مثقلة بالغنائم والسّبايا"[5] ولا يشير دبوز إلى سرّية أو حملة 34هـــ. بصفة خاصة، كما لا يشير إلى أيّ مصدر أو مرجع استقى منها معلوماته هذه.

1- نفس المرجع، ص. 42- 43.

2- أنظر ما قبل، ص. 2، 3.

3- **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم وتصحيح محمد الميلي، ط. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، جـــ. 2، ص. 22- 23.

4- **تاريخ المغرب الكبير**، ط. 1382هـــ./ 1963م.، جـــ. 2، ص. 20.

5- نفسه.

ونفس الملاحظة يمكن توجيهها إلى عبد الرحمن الجيلالي الذي يذهب إلى القول: "إنّ كثيرا من المؤرّخين يذكرون "أنّ في أثناء هذه الفترة التي أعقبت رجوع عبد الله بن سعد والتي دامت نحو السبع عشرة سنة، هناك من اتّصل من زعماء البربر، بالعرب في المشرق يحثّونهم على العودة إلى إفريقية واستئناف الفتح ... (فأصدر) الخليفة أمره بغزو إفريقية إلى عامله على مصر ... معاوية بن خُدَيْج (حُدَيْج) ... سنة 45هـ./ 666م..."[1]؛ وبصرف النّظر عن القيمة التّاريخية لهذا الكلام، فلا أثر فيه لحملة ابن حُديج سنة 34هـ.

ويتبنّى حسين مؤنس فكرة؛ أنّ العرب شغلوا عن "إفريقية -...- بسبب فتنَة عثمان ... ولم يتجدّد نشاط الفتوح، مرّة أخرى، (أي بعد سنة 27هـ.) إلاّ بعد أن استقرّ الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ... سنة 40هـ./ 661م."[2] كما عكس مؤنس فكرة مَن اتّهم، مِن الكتاب الفرنسيين، البيزنطيين بالتّقصير في جذب البربر إليهم والتّعاون معهم في مقاومة الزّحف العربي، قائلا: "ولو أراد الرّوم، في أثناء ذلك (فترة ما بين 27 و40هـ.) أن يستعيدوا إفريقية لفعلوا، فإنّ العرب ما كانوا ليستطيعوا دفعهم، ولكن البربر أهل البلاد كانوا قد حمدوا للعرب تخليصهم من الرّوم، إذ أنّهم باتوا يشعرون، بعد موقعة سُبيطلة أنّه قد أصبح لهم حليف قريب، هم العرب، وأنّ الرّوم إذا هدّدوا إفريقية، مرّة أخرى، لم يلبث العرب أن يعودوا ..."[3].

وما يمكن قوله في مثل هذه الطروحات العاطفية، ذات الصّبغة الإيديولوجية، سواء كانت من هذا الطّرف أو ذاك، هو أنّها لا تمتُّ بصلة إلى

1- **تاريخ الجزائر العام**، ط. الثانية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1384هـ./ 1965م.، جـ. 1، ص. 166- 167.

2- **تاريخ المغرب وحضارته**، بيروت- لبنان، 1412هـ./ 1992م.، المجلد 1، الجزء 1، ص. 84.

3- **نفس المرجع**، ص. 84.

التّاريخ الذي يطمح أصحابه ويعملون على جعله ندّا لبقيّة العلوم، في النّزاهة والمصداقية والموضوعية؛ معتمدين، فيما يطمحون إليه، على منهج صارم، قائم على توثيق معلوماتهم وتحليلها ونقدها للوصول إلى نتائج منطقية مقنعة.

واللاّفت أنّ ليس هناك ما يدلّ على أنّ بعض هؤلاء الكتّاب والمؤرّخين العرب الذين قفزوا عن أحداث حملة ابن حُديج سنة 34هـ.، من استعان بالمصادر التي تطرّقت لهذا الموضوع، وعند المقارنة بين ما كتبوه فيه وبين ما كتبه سابقوهم، الفرنسيون، يبدو جليّا أنّ الأواخر اقتبسوا من الأوائل، جزئيا وبطرق مختلفة، بعض ما ذهبوا إليه من آراء، دون أيّ توثيق، وهو ما يعود ولا شكّ إلى عصامية أغلبيّتهم، وعدم تدريبهم على الكتابة العلمية الأكاديمية.

يبقى الآن حسم أمر هذه الحملة، حملة 34هـ.، التي شغلت بال الكثير من الباحثين، هل قام بها معاوية بن حُديج أم لا؟

من الصّعب نفي قيامها ما دامت مصادر كثيرة[1] أكّدت العكس، ووضّحت كما تبيّن أنّها حدثت، قبل مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه وقيام الفتنة الكبرى بين المسلمين، علما أنّ مقتل الخليفة كان سنة 35هـ. وتاريخ وقوع الحملة كان سنة 34هـ.، فما الذي دَفع، يا ترى، الكثير من المؤرّخين إلى تفنيد وقوعها؟

يعود ذلك، ولا شكّ، إلى اللّبس الذي وقع لابن عبد الحكم، دون غيره، من المصادر التي أشارت إلى تلك الحملة، فنَسَبَ إليها إنجازات حملة أخرى، إمّا الثّانية أو الثّالثة، قادها ابن حُديج إلى إفريقية، في عهد معاوية ابن أبي سفيان، وفتح فيها مدينة جلولاء على يد عبد الملك بن مروان، ولمّا اختلف

1- منها: ابن عبد الحكم وأبو العرب والمالكي والدّباغ وابن ناجي وابن عذاري المراكشي.

النّاس في كيفية تقسيم غنيمتها راسل ابنُ حُديج ابنَ سفيان، فأمر بكيفية تقسيمها بينهم؛ فلو أنّ تلك الأحداث وقعت سنة 34هـ.، لكان الحَكَم، في مثل هذا الأمر، هو الخليفة عثمان الذي قتل سنة 35هـ.، وليس معاوية بن أبي سفيان الذي لم يتمكّن من الخلافة إلاّ سنة 40هـ.، علما أنّ ابن عبد الحكم ناقض نفسه عندما أكّد أنّ تلك الحملة وقعت قبل مقتل الخليفة عثمان الذي أعطى مروان بن الحكم خُمس تلك الغنيمة؛ ممّا يدلّ على أنّ المعلومات التي انفرد بها هنا غير دقيقة، وهو ما جعل الكثير من المؤرّخين يرفضون كلامه، جملة وتفصيلا، على الرّغم من أنّ مصادر أخرى تشاطره الرّأي في قيام ابن حُديج بحملة على إفريقية سنة 34هـ.، دون تفاصيل أخرى، كما تبيّن سابقا.

وبناءًا على ما تقدّم، يتبيّن أنّ أقرب رأي إلى الصّواب في هذا الموضوع هو ما استنتجه .Caudel M من احتمال قيام ابن حُديج بحملة صغيرة على إفريقية، انطلاقا من مصر، سنة 34هـ. وقد مرّ آنذاك، بالموقع الذي أقيم فيه، فيما بعد، معسكر القرن، بدليل احتوائه على قبر أحد أصحابه، وهو الصّحابي أبُو زُمعة عبيد الله بن آدم البلوي لكنّه عاد إلى نقطة انطلاقه سنة 35هـ. ليشارك في أحداث الفتنة التي نجمت عن مقتل عثمان[1].

1- أنظر ما قبل، ص. 3.

البيبليوغرافيا:

بالعربية:

1- البكري: **المغرب في ذكر إفريقية والمغرب**، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشره البارون دوسلان، الجزائر .1957

2- ابن تغري بردي (أبو المحاسن): **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة 1383هـ./ 1962م.

3- ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقية والأندلس**، نشره وترجمه إلى الفرنسية .Gateau A، الجزائر، 1948.

4- الجيلالي عبد الرحمن: **تاريخ الجزائر العام**، ط. الثانية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1384هـ./ 1965م.، جـ. 1.

5- الدّباغ وابن ناجي: **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تصحيح وتعليق إبراهيم شبّوح، ط. الثانية، القاهرة 1388هـ./ 1968م.

6- دبوز علي: **تاريخ المغرب الكبير**، ط. 1382هـ./ 1963م.

7- سعد زغلوم عبد الحميد: **تاريخ المغرب العربي، من الفتح إلى بداية عصر الإستقلال**، ط. الإسكندرية، 1995.

8- ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط. بيروت، جـ.1.

9- عمامو حياة: **أسلمةُ بلاد المغرب**، 2004.

10- الكندي (أبو محمد بن يوسف): كتاب الوُلاة وكتاب القضاة، مهذّبا ومصحّحا بقلم رفن كست، بيروت .1908

11- لقبال موسى: **المغرب الإسلامي من بناء معسكر القرن حتى نهاية ثورات الخوارج، سياسة ونظم**، ط. 2، الجزائر، .1981

12- المالكي: **رياض النّفوس في طبقات علماء القيروان وزهّادهم وعبّادهم ونسّاكهم و...**، نشره حسين مؤنس، القاهرة 1368هـ./ 1951م.

13- مؤنس حسين: **فتح العرب للمغرب**، جـ. 1.

14- ـــــــــ : **تاريخ المغرب وحضارته**، بيروت- لبنان، 1412هـ./ 1992م.، المجلد 1، الجزء 1.

15- مبارك الميلي: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم وتصحيح محمد الميلي، ط. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، جـ. 2.

بالفرنسية:

1- Brémond G.: Berbères et Arabes, la Berberie est un pays Européen, Payot, Paris.

2- Caudel M.: Les premières invasions arabes dans l'Afrique du Nord ; 21- 78h/ 641- 697.

3- En-Noweiri: Conquête de l'Afrique septentrionale par les mus. Et hist. De ce pays, sous les émirs arabes, dans Ibn khaldun, hist. Des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afr. Septentrionale, traduite de l'Arabe par le Baron de slane, Paris 1968.

4- Fournel (H.): Les berbères, 1875, T. 1.

5- Marçais (G.): La Berberie musulmane et l'orient au Moyen Age, Paris, 1946.

6- Julien (Gh. A.): Histoire de l'Afrique du Nord, Payot-Paris, 1966, T. 2.

7- Mercier (E.): Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale, Constantine- Alger, 1875.

8- Pellat (Ch.): Encyclopédie de l'islam, nelle éd. Leiden-New york- Paris 1993, T. VII, art. Mu'awiya b. hudaydj.

9- Terrasse (H.): Histoire du Maroc, dès origines à l'établissement du prosectorat français, éd. Atlantides, Casablanca 1947, livre V.